مجلة المرأة المسلمة

العدد : ٢٠٧ الموافق في ذو القعدة ١٤١٩ هجري ٣ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : المرأة وجهنم	بقلم : يمان السباعي

روى الشيخان عن عمران بن الحصين ، عن النبي ﷺ قال : " اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء " .

وعن أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول ﷺ في أضحى - أو فطر - إلى المصلى ، فمر على النساء فقال : " يا معشر النساء تصدّقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار .

فقلنا : وَلِمَ يارسول الله ؟

قال : تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين ، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن .

فقلنا : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟

قال : أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ؟

قلنا : بلى

قال : فذاك نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تصم ؟

قلنا : بلى

قال : فذاك نقصان دينها " .

وأخرج مسلم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قام النبي ﷺ ، يوم الفطر ، ثم مضى ، حتى أتى النساء ، فوعظهن ، وذكَّرهنَّ فقال : " تصدّقن فإن أكثركن حطب جهنم " ، فقامت امرأة من سطة النساء ، سفعاء الخدين ، فقالت : لمَ يا رسول الله ؟! قال : " لأنكن تكثرن الشكاة ، وتكفرن العشير " قال - يعني جابر - فجعلهن يتصدقن ! .

***

وكان قد كثر اجتهاد الناس في القديم والحديث ، في شرح هذه الأحاديث ، فأما علماء الأمة وأحبارها من القدماء ، فقد وقفوا عند ما أراده رسول الله ﷺ من تذكير النساء بطاعة الله ، والإكثار من الصدقة ، لتكون حجاباً لهن من النار ، وأما في هذا العصر فقد وجد العلماء في هذا الحديث فتنة لأفهام الناس ودرجة وعيهم ، فبذلوا أقصى جهدهم لرد هذه الفتنة .

إلا أنه لفت نظري شرح بسيط لهذا لحديث الأخير على هامش - نزهة المتقين شرح رياض

الصالحين- (١٢٨٢/٢) جاء فيه : " أفاد الحديث :

* حض النساء على الصدقة والإكثار من الاستغفار ، لأن الصدقة والاستغفار يدفعان العذاب ويُكفران الخطايا

* عظة النبي ﷺ للنساء تدل على اهتمام الإسلام بالمرأة

* جحود النعم واستعمال الكلام القبيح كاللعن والشتم حرام ،

* العقل يقبل الزيادة والنقصان وكذلك الدين والإيمان ."

ورجعت إلى هذه العبارة الأخيرة .. فوجدت فيها واحداً من المعاني العظيمة جداً ، والتي تَنَبَّه إليها شارحوا رياض الصالحين ، والذي قد يحل معضلة كبيرة في أذهان الناس ، ممن التبس عليهم فهم هذا الحديث إنكاراً ، أو اعتراضاً ، أو تطبيقاً ، فمن قائل ما كان للنبي ﷺ أن يقول مثل هذا الكلام ، ومن آخر يعترض سراً أو جهراً على أمر يخالف الواقع والنقل والعقل ، ومن مستعمل لهذا الحديث كمبرر لجميع شذوذه السلوكي في معاملة النساء من زوجة أو أخت أو ابنة !

وعدتُ إلى كتاب المهذب من إحياء علوم الدين ، لمؤلفه الأستاذ صالح الشامي (ص ٩٧) والذي قال فيه : " اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية " .. " إن الإيمان عقدة على القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي ".." والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته ، كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار ، ولذلك قال تعالى : { فزادهم إيماناً } وقال : { ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم } وقال تعالى : { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون } " .

فإذا كان الإيمان والدين يقبلان النقصان والزيادة ، وإذا كان العقل يقبل النقصان والزيادة .. فلم يعد في هذا الحديث - من وجهة نظري على الأقل - أية شبهة تؤخذ عليه من الناحية الشرعية أو العقلية .. هذا من جهة .. ومن جهة أخرى .. فلا ينبغي أن يستعمل سلاحا يُشهر في وجه النساء ، خاصة إذا كن من أولئك اللواتي التزمن دين الله ، واقتصرن على طاعة الزوج ، ورعاية البيت والأولاد ، ولقد دهشت مرة وأنا أرى إحدى النساء واقفة أمام " المجلى " .. وقد تركت الماء مفتوحاً .. وهي واقفة تحملق فيه ، فلما استفسرت عن ذلك : قالت لي : إن زوجي لا يحتمل رؤيتي جالسة للراحة ، ولا يسمح لي برؤية شيء في التلفاز ، فإذا جلست معه لشيء من هذا شتمني أو قرعني وأرسلني إلى المطبخ لأرى ماذا فيه .. فآتي المطبخ .. فإذا لم أجد فيه ما أفعله ، فتحت الماء ، لأرى كيف يمكن أن ينظف الماء أنابيب المجاري من آثار فضلات الصابون وغسل الصحون !!!

فلما سألت الزوج المصون عن سبب ما يفعله ، قال : ينبغي أن لا تعتاد المرأة الجلوس أبداً ، والفارس المغوار هو الذي لا يسمح للفرس بالكسل !! قلت له : فلماذا تجلس أنت أمام التلفاز طيلة ساعات النهار ، قال أنا قد تقاعدت .. بعدما أنهيت المدة التي خدمت فيها .. قلت له : وهي .. ألا تستحق تقاعداً ، أو عطلة ، أو راحة ، أو تمتعاً ، أو حتى وقتاً مقتطعاً تضيعه كما تشاء .. حتى لو كان ذلك برؤية شيء في التلفزيون تُروح به عن نفسها عناء حياة العبودية هذه

ولابد أن هناك من سيقول التلفزيون يفسد العقول .. وهذا كلام مقبول .. ولكن من العار والعيب أن يقال لسيدة في الخمسين من عمرها ، وأشد من ذلك عاراً أن لا يترك الإنسان لأهل بيته فرصة ليميزوا بأنفسهم الخبيث من الطيب ، فإن لم يميزوه .. جاء دوره في الوعظ بالتي هي أحسن !! .

لقد فهم البعض أن اعتراض المرأة على ظلم الرجل ، أو مناقشته ، أو مراجعته ، وربما تعبيرها عن رأيها مجرد تعبير ، يجعلها مع بنات جنسها حطباً لجهنم .. وقد نسينا أن رسول الله ﷺ كان قد بين أن أمته بين الأمم ليست إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، وأن بعث النار هو تسعمائة وتسعة وتسعون ، بينما الواحد الباقي يؤمر به إلى الجنة ، ولا أعجب أن واحدة من كل ألف امرأة في عالم اليوم يؤمر بها إلى الجنة .. خاصة وأن التقية النقيّة الصالحة أصبحت من الندرة بمكان في هذا العصر الذي يمور بالشهوات وقد انفرط عقد الأخلاق ، الذي استجابت له نساء العالم ، اللواتي ركبن الموجة ، فاستشرفهن الشيطان .

فهل يظن عاقل أن امرأة مسلمة ملتزمة بدينها يمكن أن تكون في عداد هؤلاء بسبب غضب أصابها ، أو طعام لم تجد صنعه ، أو طفل لم تحسن إسكاته في جوف الليل ، أو قميص لزوجها خربته دون قصد منها وهي تغسله أو تكويه ؟؟ هل يظن عاقل أن امرأة مسلمة تعرف الله وتخشاه في نفسها وزوجها وبيتها ، هي في جملة هؤلاء العاريات الكاسيات اللواتي نراهن في كل مكان ، قد سددن علينا منافذ التنفس ، في الشوارع ، في التلفزيونات ، في المستشفيات ، في الدوائر الرسمية .. يتولين إضرام الشهوات ، ونيران الغيرة في القلوب ، وتخريب البيوت ، وعدم رضى الناس بما عندهم من نساء شريفات عفيفات ، مؤمنات ، طاهرات

وكيف يمكن لمسلم يؤمن بالله تعالى ويتبع الرسول ﷺ أن يتألى على الله فيقول إن زوجته الملتزمة هي من سكان جهنم أو يصف امرأة تصلي وتصوم بأنها ناشز بسبب خلاف ينشب بين الحين والحين في بيتها بسبب ضيق المعيشة ، واختلاف المشارب والأفكار ؟

لقد أصبنا في الواقع بانتكاس خطير ليس في طريقة التزامنا بديننا فحسب ، بل في طريقتنا في محاكمة الأمور في عقولنا ، وإن عجزنا عن فهم نصوص الدين لا يبرر انتهاك حقوق النساء الإسلامية .. بهذا الشكل ، ومن ثمّ التواضع على اتفاقٍ للصمت يدفع عنا إثم ما نفعل وما نقول ، ويجعلنا في براءة من قُبح ما نسمع وما نرى ، تجعلنا لا نعترف بهذا الواقع الذي لا يمكن معالجته ما لم يُكشف ويعرى كما هو .

إن امتهان المرأة يعني امتهان الأمة . لأن المرأة هي التي تربي هذه الأجيال التي اعتادت الذل والخنوع واستساغت العنف في بيوتها ، وفي ظل الأسرة التي جعلها الله معقلاً لبناء الإنسان في إطار المودة والرحمة ، فأصبحت ساحة للمصارعة الحرة واستعباد الآخرين ، وتجاوز الحدود وعلى كل صعيد ، مما دفع هذا الجيل أن يبيمم شطر ما يراه من مظاهر براقة خادعة عن كل ما تتمتع به المرأة الغربية ، وأبشع من ذلك أن نبرر فهمنا السيء وأعمالنا المشينة .